

بحث مقدم

إلى المؤتمر العلمي الأول

تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة

المنعقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١

إعـــداد

الدكتـــور

حلمي السعيد السعيد علام

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدمياط الجديدة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

مقدمة:

استقر في وعي دعاة الفكر الليبرالي المعاصر أن الحضارة الغربية المعاصرة بمكوناتها العقلية وبنتاجها الفكري مرحلة أكثر تقدمًا من كل ما عرفته البشرية؛ فأصبح الاتجاه إليها بكل مكوناتها المرجع والمقياس والضابط بلا شرط أو قيد أو تحفظٍ؛ حتى بات مفهوم الثقافة لديهم قاصرًا على بعض الأفكار الانحرافية والشطحات المفاهيمية والمبادئ التغريبية؛ ومن ثم صارت — بمزاعمهم – صورة المثقف بأنه صاحب الفكر الشاذ؛ حتى رأينا من أبناء المسلمين من يطعن في ثوابته بحجة الثقافة، وانطلق نفرٌ من المتغربين فبشروا بالمقولات والرؤى الحداثية لدهاقنة المستشرقين وفلاسفة عصر التنوير في الغرب، وفرض هذه الرؤى الحداثية على ثوابت الأمة وتراثها وتطبيقها، بإقامة القطيعة المعرفية مع ثوابت الإسلام.

من هنا خرج علينا الليبراليين في صورة المجددين، بينما هم مبددون ومشوهون ومزيفون ومضيعون لثوابت الأمة الإسلامية وتراثها، يلقون بأفكارهم المسمومة الناتجة عن أفهامهم السقيمة لنقد النص الديني(القرآن) بربط النص بأدوات الفهم الجديدة، عن طريق الإفادة من التحليل التاريخي والنفسي والأنثروبولوجي والألسني والسيميائي والتفكيكي ... وغيرها من الآليات في تحليل ظاهرة الوحي القرآني عامة، وقراءة النص القرآني على وجه الخصوص وفهمه.

وقد أدى هذا بهم إلى الشطح والتشوية لتراث الأمة تحت ستار التجديد بأوهام فكرية حول الرسالة والرسول والقرآن والوحي الإلهي؛ فأحدثوا في نفوس مشايعيهم يأسًا من مستقبل الإسلام، ومقتًا لحاضره، وسوء ظنٍ بماضيه.

زعم هؤلاء أن مشروعاتهم الفكرية الممتلئة بشطحات أوهامهم وأوهام دهاقنة الاستشراق تقوم على ثلاثة مبادئَ فكرية: الأول– مبدأ عقلنة الخطاب الديني ،

والثاني– مبدأ تاريخية الخطاب الديني (تاريخية النصّ القرآني)، والأخير مبدأ أنسنة الخطاب الديني (التعبير الشفهي للوحي ونزع قداسته)، هذه المبادئ معاول هدم منهم لتراث الأمة الإسلامية وثوابتها وأصولها الدينية والفكرية.

نتيجة لذلك تأتي أهمية الموضوع والكتابة فيه؛ ذلك أنَّ هناك حاجة ماسة لاستراتيجية جديدة في مواجهة الأفكار الليبرالية الحداثية بشطحاتها وأوهامها فكرًا ومفهومًا؛ لذا كان موضوع هذه الدراسة بعنوان" الفكر الليبرالي المعاصر وموقفه من التراث الإسلامي"، وقد استخدمتُ المنهج الوصفي والاستقرائي والنقدي؛ لكشف عوار هذا الفكر المتحرر من كل قيد وشرط، وينتظم البحث من مقدمة، ومبحث تمهيدي، وثلاثة مباحث، ثم كانت خاتمة البحث التي اشتملت على أهم نتائج البحث وتوصياته، ثم ثبت بمراجع البحث، وفهرس الموضوعات.

هذا وما كان من توفيق فمن الله وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

د/ حلمي السعيد علام

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنين بدمياط الجديدة

مبحث تمهيدي : الفكر الليبرالي المعاصر بين التجديد والحداثة والأصالة

أولاً- مفهوم الفكر الليبرالي المعاصر :

(أ) مفهوم الفكر لغة واصطلاحًا:

الفكر لغة: يُقال: (فَكَرَ): الفاء والكاف والرَّاء، تردد القلب في الشيء، ورجل فكير: كثير الفكر(١)، قال الجوهري:" التفكر، يعني التأمل، والفكر: إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول"(٢)،(والتفكير)إعمال العقل في مشكلة للتوصل إلى حلِها، و(الفكرة) الفكر والصورة الذهنية لأمرٍ مَا فكر(٣)،والفكر: تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني، ولي في الأمر فكر أي نَظر وروية(٤).

الفكر اصطلاحًا:

عرَّفه الجرجاني بقوله:" إحضار القلب من معرفة الأشياء"(٥)، وأمَّا التهانوي فقال في تعريفه:" يُطلق على ثلاثة معان: الأول- حركة النفس في المعقولات بواسطة القوة المتصرفة، كما في المنام لا تسمى فكرًا، الثاني- حركة النفس في المعقولات مبتدئة من المطلوب المشعور بوجه ما، وهذا هو الفكر الذي يترتب عليه العلوم الكسبية، ويحتاج تحصيل جزئيه المادية والصورية جميعًا إلى المنطق، والثالث- هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين أي الحركة من المطلوب إلى المبادئ وحدها"(٦).

وقد عرَّفه أحد الباحثين المعاصرين بقوله:" إنه جملة من القضايا أو الآراء النظرية في مجال من مجالات المعرفة، تؤسس للعلم في هذا المجال، كما تقوم ببعض وظائف العلم

---

(١) مقاييس اللغة . لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون:٤/٤٤٦، دار الفكر، بيروت،١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢) انظر :المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ٢/٦٩٨، دار الدعوة، د.ط، د.ت.

(٣)المصدر السابق: ٢/٦٩٨.

(٤) المصدر السابق: ٢/٦٩٨.

(٥) التعريفات .محمد بن علي الجرجاني: ص٨٨، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣/١٩٨٣م.

(٦) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم . لمحمد الفاروقي التهانوي، تحقيق: علي دحروج: ٢/١٢٨٤،ط١،مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.

مثل (التفكير والتنبؤ)، وهذه الجملة من التفكير والآراء قابلة للتطور وللتغيير، عاكسة في كل ما تقدم ذكره ظروفًا بيئية وفردية"(١)، فهذا التعريف أشمل وأوسع في تعريف الفكر، لم يقتصر على جانب واحد من جوانب الفكر .

فالتعريفات كلها تدور حول فكرة النتاج العقلي وكيفيته ومفرداته، وعليه فالفكر لا يرد إلا في اليقظة بناءً على النظر أو التأمل أو التدبر والاستنباط والحكم(٢)، فالفكر بناءً على ما سبق هو :"التحصيل النهائي لكل المعطيات التي يصل إليها العقل في معرفته للأشياء، وإظهار ما استطاع من إدراكها في مخزونه الفكري، من خلال طرائق التفكير سواء المكتسب الناتج عن فهمه أم المستقى من فهم غيره"(٣).

(ب): مصطلح الليبرالية:

(١) الليبرالية: مصطلح نشأ وتطور في أحضان الفكر الغربي بدءًا من القرن السادس عشر الميلادي، ثم انتقل بعد ذلك إلى العالم العربي ودخل قاموس الثقافة العربية كغيره من المذاهب والأفكار والفلسفات الوافدة، وأبرز تعريفاتها: "الانفلات المطلق" وهي:" الحرية بمعنى انعدام الموانع والعوائق" وخاصة الميتافيزيقا الدينية"(٤)، وتُعرّف في الفكر العربي بأنها:"أيديولوجية جامعة تتفاعل في بوتقتها الفلسفات الأربع: الوضعية، والوضعية المنطقية، والبرجماتية، والوجودية"(٥)، وتعرف-أيضًا-:"بأنها مذهب فكري وسياسي ينادي بالحرية المطلقة في الميدان الاقتصادي والسياسي والاجتماعي"(٦).

---

(١) الثقافة الإسلامية، مفهومها، مصادرها، خصائصها، مجالاتها، د/ عزمي طه السيد. وآخرون: ص ٥٠، دار المناهج، عمّان،٢٠١٠م.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون . للتهانوي، مصدر سابق: ١٢٨٥/٢.

(٣) الحصانة الفكرية في ضوء السنة النبوية "دراسة موضوعية" أ/ إسراء عطا خليل: ص ١٥، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٥م.

(٤) انظر:موسوعةلالاندالفلسفية.أندريه لالاند، ترجمة: خليل أحمد خليل:٧٢٥/٢ ، ٧٣٢ ، ط٢،منشورات عويدات،بيروت وباريس٢٠٠١م

(٥) المصطلحات السياسية.د/توفيق الواعي:ص٥،ط١، شروق للنشر والتوزيع، المنصورة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

(٦)مجلة الحوار المتمدن" الليبرالية القديمة والليبرالية الجديدة.المعاني والمبادئ والمفاهيم" .د/سيار الجميل، العدد١١١٩،بتاريخ: ٢٠٠٥/٢/٢٤م.

(جـ): تعريف المعاصرة: لغة: من العصر، وهو: الدهر والحين. قال ابن فارس: العين، والصاد، والراء أصولٌ ثلاثة صحيحة، والعصر هو الدهر أقسم الله به، قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (١).

واصطلاحًا: تُعرف بأنها" من المفاعلة، أي التفاعل بين الإنسان — أو الثقافة أو الحضارة– وبين العصر أي الزمن المعيش، فإذا تمايزت الأمم في ثقافتها، لتمايز هويات هذه الثقافات؛ فإنها ولا بد متميزة مع العصر الذي تعيش فيه"(٢)، ويفهم من هذا السياق أن المعاصرة تعني ذلك النشاط التفاعلي الذي يحدث بين الإنسان أو الثقافة وبين العصر الذي يعيش فيه، ومن ثم لكل أمة مميزاتها الخاصة بها وعصرها الخاص بها من حيث الثقافة، " وهي: استعارة الثقافة السائدة والمهيمنة مع اللحظة الراهنة من عمره"(٣)إنَّ المعاصرة تعني استعارة تلك الثقافة الشائعة والسائدة في عصر معين ومن ثم فيه مثل التفاعل الذي يحدث بين الإنسان واللحظة الآنية من عمره.

ونجد مفهومًا آخر للمعاصرة في الاصطلاح يؤكد على المحافظة على أصالة الإنسان الفكرية والثقافية " إنَّ المعاصرة هي أن يعيش المرء في عصره، عارفًا بزمانه، مقبلاً على شأنه بأصالته، آخذًا بمقتضيات عصره"(٤) يتضح من خلال هذا التعريف أن المعاصرة تعني أن يعيش الإنسان ويتفاعل مع روح العصر وأن يكون على دراية بمقتضيات زمانه ومحافظًا على أصالته ، ويؤكد صاحب هذا المفهوم على أنه ليس هناك معاصرة من دون أصالة، وأن هناك ارتباطا وثيقا بينهما، " إن المعاصرة لا تكون بغير أصالة، وإن

---

(١) معجم مقاييس اللغة . مصدر سابق: ٣٤٠/٤، والآيتان بسورة العصر.
(٢) أزمة الفكر الإسلامي المعاصر.د/ محمد عمارة: ص ٢٥، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، د.ط، د.ت.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٥ ، ٢٦.
(٤) الأصالة والمعاصرة في الفكر الإسلامي .د/ محمد رأفت سعيد: ص٩، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.

وجد في عصر من العصور معاصرة بغير أصالة كانت أهواء ومفاسد تنخر في عصرها، وإذا كانت هناك أصالة حقًا فمن مقتضيات المعاصرة"(١).

يتضح لنا إذًا أنه لا وجود لمعاصرة من دون أصالة ولا أصالة من دون معاصرة، ومن ثم هناك تكامل بينهما؛ لأنَّ الأصالة تهدف إلى المحافظة على التراث، أما المعاصرة فهي تهدف إلى مواكبة التقدم، ومن ثم فالإنسان الأصيل يحاول دومًا التكيف والعيش مع الواقع والبيئة التي يعيش فيها ويحاول أيضًا أن تكون هذه الأصالة ملائمة ومناسبة ومتماشية مع مقتضيات العصر.

ثانيًا– التجديد الذي يريده الفكر الليبرالي العربي المعاصر:

نتيجة للتغيرات الحاصلة في العالمين العربي والإسلامي في ظل تخلفنا عن الركب الحضاري، ووصول الغرب إلى ما بعد الحداثة وتقدمه في ميدان البحث الفلسفي والعلمي، الذي أفرز جملة من الأدوات والآليات الجديدة لقراءة النصوص وفهم المقدس؛ فكَّرَ دعاة الفكر الليبرالي العربي في استثمار آليات القراءة المعاصرة في تأسيس فهم جديد للنص القرآني المحوري للدين الإسلامي(أو إعادة قراءة التراث) كما طُرحت في منتصف القرن العشرين، من أجل بلوغ الحداثة ومواجهة التخلف، قراءة تتجاوز فهمه المعهود لدي المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين.

فما المراد بالحداثة وما بعد الحداثة التي يصبوا إليها دعاة الفكر الليبرالي العربي؟ الحداثة بمفهومها الغربي، هي التنوير الأوربي الوضعي العلماني التي تأسست عليها ثقافة عصر النهضة الأوربية الحديثة، والتي أقامت قطيعة معرفية مع الموروث الديني اللاهوتي، وأسست معالمها على الفلسفة الإغريقية والقانون الروماني" (٢)

لقد ظهر مصطلح الحداثة في أوله "للتمييز أو الفصل بين فترتين زمنيتين جسدهما الصراع بين القديم والحديث مع تأكيد القطيعة مع الفترة الماضية بدخول عصر النهضة

---

(١) المصدر نفسه: ص٤٩.

(٢)الإسلام والتحديات المعاصرة. د/ محمد عمارة: ص ٨٥، ط٤، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع،٢٠٠٩م.

والتجديد، ثم تجاوزها إلى فترة المعاصرة والتي تعني ضمنًا التحديث؛ حيث إنَّ الحداثة والمعاصرة توأمان يتجاذبان الفكر العلماني الحديث"(١).

فالحداثة هي حركة تجديدية في حقول الإنتاج والأفكار وأنماط الحياة والحكم والفن خرجت على جمود سنوات العصور الوسطى الطويلة، وعليه فهي تلحق عمومًا الحقبة التي تلت الخروج من العصر الوسيط، أي منذ القرن السادس عشر(٢)،فالحداثة بهذا المعنى تشير إلى بنية فلسفية وفكرية تمثلت في الغرب في بروز النزعة الإنسانية بمدلولها الفلسفي، فهي حالةٌ انطلقت من فكرة أن الإنسان هو (مركز) الكون وسيده، وأنه لا يحتاج إلا إلى عقله فقط، في مجال المعرفة والعمل، ودراسة الواقع، وإدارة المجتمع، والتمييز بين النافع والضار، من دون الرجوع إلى وحي أو غيب، وعلى هذا قطع " عبد العزيز حمودة قائلاً: "إنَّ الحداثة بمعناها العربي والغربي على السواء تتجه إلى تدمير عمد النظام القديم"(٣)، وهي عند أحد أقطاب الفكر الليبرالي العربي المعاصر المتحرر من كل قيدٍ وشرطٍ ديني ، المدعو "أدونيس"يقول: "الحداثة رؤيا جديدة، وهي جوهر رؤيا تساؤل واحتجاج: تساؤل حول الممكن، واحتجاج على السائد، فلحظة الحداثة هي لحظة التوتر، أي التناقض والتصادم بين البنى السائدة في المجتمع وما تتطلبه حركته العميقة التغييرية من البنى التي تستجيب لها وتتلاءم معها"(٤).

أمَّا مصطلح ما بعد الحداثة التي سعي إليه الفكر الليبرالي العربي المعاصر؛ يتجلى هذا المفهوم في مجال النقد الأدبي مرادفًا لحركة معرفية جديدة بعدية، قامت على أنقاض

---

(١) الأسلوبية والأسلوب.محمد عبد السلام الأسدي: ص١٧، ط٣، الدار العربية للكتاب،١٩٨٢م.

(٢) حالة ما بعد الحداثة. بحث في أصول التغيير الثقافي.ديفيد هارفي. ترجمة محمد شيا: ص٤١٨، ط١،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٥م.

(٣) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك. عبد العزيز حمودة: ص ٢٥، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨م.

(٤) فاتحة لنهايات القرن . علي أحمد سعيد أدونيس: ص٣٢١، ط١، دار العودة، بيروت.

حركة حداثية قبلية سميت بالبنيوية؛ فكان لذلك الانقلاب بيان لحركة نقدية سميت ما بعد البنيوية، والتي شكلت في مفهومها مقاربة نظريةً وموضوعًا مشتركًا مع مفهوم ما بعد الحداثة الفكرية؛ حيث يقول الناقد يوسف وغليسي في هذا الصدد: " كان ذلك مطية لقيام حركة معرفية جديدة على أنقاضها سميت ما بعد البنيوية، وقد تلتبس بما بعد الحداثة فتترادفان أمام مفهوم واحد، ويغدو التمييز بينهما أمرًا من الصعوبة بمكان"([١])

انطلاقًا مما سبق نجد أن " ما بعد الحداثة" هي أقرب ما تكون على حركة فكرية تتعدد بداخلها الآراء وتتفرع إلى اتجاهات تتباين في المصدر والتوجه"([٢])، فهي أطروحة مثلت نقطة انعطاف متتالية لمسار حركة الحداثة.

فالحداثة وما بعدها بهذا المفهوم لا تعني إقامة ما انهدم من المفاهيم الإسلامية ولا إحياء ما اندثر من ثوابت الدين، بل تعني التخلص من الماضي بكل ما يحتويه من أصول وثوابت، والانطلاق في تجرد عن الدين بكل مكوناته، وإنَّ هدف الليبراليين في عالمنا العربي لم يكن بلوغ مستوى أعلى من الرقي الحضاري والنضوج الفكري كما يدعون، وإنما في الحقيقة استبدال بالأفكار والمبادئ والقيم العربية الإسلامية الأصيلة أفكارا ومبادئ وقيما غربية مادية حديثة مستوردة من شأنها أن تثبت جذور تبعية المسلمين للغرب، وتمحو شخصية المسلم، وتطمس معالم المجتمع الإسلامي الفكرية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية..."([٣])

إنَّ التجديد الذي ننشده للتراث الإسلامي لم ولن يكون التجديد الذي ينشده دعاة الفكر الليبرالي العربي المعاصر؛ فتجديدهم المزعوم يقيم قطيعة معرفية مع الفكر الديني

---

(١) إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي الحديث. يوسف وغليسي: ص ٣٣٥،ط١، دار العربية للعلوم، الجزائر، ٢٠٠٨م.

(٢) الحداثة وما بعد الحداثة في قلسفة ريتشارد روتي. محمد جديدي: ص ١٤٣،ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف، ٢٠٠٨م.

(٣) مستقبل الإسلام. مجموعة من المفكرين: ص٢٨٥، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.

كما حدث في الحضارة الغربية([1])، وأن اعتماد الغرب على العقل هو أهم عناصر القوة والرشد لديهم، يقول محمد عابد الجابري: "ونحن نعتقد أنه ما لم نمارس العقلانية في تراثنا وما لم نفضح أصول الاستبداد في التراث؛ فإننا لن ننجح في تأسيس حداثة خاصة بنا، حداثة ننخرط بها ومن خلالها في الحداثة المعاصرة العالمية كفاعلين وليس كمنفعلين"([2]).

ثالثًا– الفكر الليبرالي المعاصر والخلل العلمي والمنهجي:

كان على دعاة الفكر الليبرالي العربي المعاصر أن يميزوا بين الدين والفكر الديني والتدين، فهي ثلاثة مجالات مختلفة، أمَّا الأول فيتسم بالقدسية؛ لأن الدين الحق مصدره إلهي، وأمَّا الفكر الديني مصدره بشري، يشمل الفقه، والفلسفة الدينية، والثقافة التي أنتجها العقل بمرجعية دينية، وأما التدين فهو السلوك الناتج عن المجالين السابقين في علاقة الإنسان بربه، وبنفسه، وبالكون من حوله.

لقد قام دعاة الفكر الليبرالي المعاصر بالترويج في الوقت الراهن، ومنذ فترة ليست ببعيدة. وخاصة في الأوساط الفكرية الليبرالية والفلسفية – بعض الدعاوَى التي تزعم أنَّ الوحي الإلهي مجرد نصوص بشرية ، أو أنها – بغضِّ النظر عن مصدرها – هي نصوص مطلقة عن المعاني؛ ولذلك فإنَّ بإمكان أي شخص أن يفهمها أو يفسرها على النحو الذي يراه منسجمًا مع ظروفه وآرائه ورؤاه الشخصية .

تأثرت هذه الدعاوَىَ ببعض الفلسفات والمناهج الغربية التي لا تخلو من خلل علمي ومنهجي واضحين، زاعمين ضرورة الاعتماد عليها من أجل فهم النص الديني وتحديد مدلولات القرآن والسنة، إنَّ محور القضية يتحول هنا من الخطاب الديني إلى النص الديني، والمقصود هنا هو القرآن، وفي النهاية تمهد إلى نبذ الوحي والتخلي عنه.

---

(١) تجديد الدنيا بتجديد الدين .د/ محمد عمارة: ص١٣، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٥م.

(٢) التراث والحداثة. محمد عابد الجابري: ص ١٧، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩١م.

لم يخل المنهج المعرفي الليبرالي من تضمينات أيديولوجية ومقاصد معرفية يريد بلوغها، ومنهجهم يستند إلى مرجعية أساسية ومرجعيات تابعة، يستمد منها مقولاته الأساسيةَ، ومنطلقاته المبدئيةَ، وغاياته النهائية، ويحوز على أدوات يوظفها في التحليل والتفسير والقراءة، وتناول جميع القضايا من خلال المنطلقات ومحاكمتها من خلال الغايات، وهذا كله يتم ضمن استراتيجية معرفية شاملة تستبطن ولاءات أيديولوجية، وتحيزات نظرية، لا يقدر أي عالم على الانفكاك منها، وتترجم هذه التحيزات في صورة نظريات ترتكز على مناهج استشراقية.

المبحث الأول : أثر الاستشراق ومناهجه في الفكر الليبرالي المعاصر

(أ) تقديس العقل لدى الفكر الليبرالي المعاصر(عقلنة الخطاب الديني):

إنَّ دراسة التراث الإسلامي تعرضت لتحريف وتزييف كثير خلال مراحل التاريخ واشتد رحاها في عصرنا الراهن، وقد حصل ذلك بسبب اختلال مناهج النظر والتلقي والنقد والتمحيص في قراءة التراث، وتسرب الأهواء وفساد مشارب أهل الأهواء الذين انتحلوا الغث من المعارف وجعلوها فكرًا ودينًا للأمة، وكان لاهتمام العقلية الليبرالية بالنظر والتحليل العقلي المادي أكبر الأثر على مشاهدات العقل على الأمور الغيبية، مما أدى إلى الانحراف الفكري والديني معاً وتغيير واستبدال المفاهيم المقدسة شرعاً، واستبدال المفاهيم غير المقدسة عقلاً بها، وقلب غير المقدس إلى مقدس والعكس، مستخدمة المنافذ الموصلة إلى تغيير المفاهيم، ولو بالتزييف والتضخيمِ، أو التحقير، أوْ انتقاء أخطاء حقيقية من عقيدة متسعة، وفكرٍ فسيحٍ، وعرضِها في سياقات واحدة، وإشغال السامعين بها.

ولقد بلغ الشطح والزيف الفكري مداه لدى الليبراليين، حتى نقل عن أحدهم"محمد أحمد خلف الله ": " إنَّ البشرية لم تعد في حاجة إلى قيادتها في الأرض باسم السماء، فلقد بلغت سن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها "(١)، ويقول محمد أحمد خلف الله : " فلقد حرر الإسلام العقل البشري من سلطان النبوة، من حيث إعلان إنهائها كليًا، وتخليص البشرية منها"(٢).

بل أخذ محمد عابد الجابري على عاتقه ما سُمي "بإعادة قراءة التراث" متأثرًا بالمفكر الفرنسي " باشلار" فجمع أخلاطًا ومزيجًا أيديولوجيًا لإعادة صياغة التراث قائلاً: "اللغة والشريعة والعقيدة والسياسة في الماضي والحاضر تلك هي العناصر الرئيسية التي

---

(١) غزو من الداخل . جمال سلطان : ص٥١ ، ط١ ، دار الوطن ، الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.

(٢) الأسس القرآنية للتقدم . د/ محمد أحمد خلف الله : ص ٤٤ ، طبعة القاهرة ١٩٨٤م.

تتكون منها المرجعية التراثية التي قلنا: إنه لا سبيل إلى تجديد العقل العربي وتحديثه إلا بالتحرر من سلطانها"[١].

إنَّ أصحاب الفكر الليبرالي لا يرون شيئًا ممنوعًا في سبيل إزالة أي فكر أو عقيدة غير مادية؛ لأنَّ الحق القطعي هو الوصول إلى النتائج العقلية الخالصة، غيرها تخلف وظلام، فيحاربون الفكر والعقيدة المقدسة، بالتدليس والكذب والتنديد والسخرية والاستهزاء وإظهار عيوب المخالفين، فيجمعون شذوذات الأفراد من عقائد أُمة لا يقول بها إلا واحد منهم لرشق الأسماع بالأقوال المرجوحة ــ أقوال لأفرادٍ معينين ــ عبر وسائل الإعلام، ويسوقونها مساق التسليم المذهبي، وهنا يحل الضعيف من الأقوال في العقائد محل الصحيح الراجح والمجمع عليه.

من أمثلة ذلك سوقهم أحكام التحريم في الإسلام الخاصة بشيء خاص وبصورة نمطية منضبطة في مساقٍ واحد مبرزين نصوص التحريم، حتى يصوروا الإسلام وعلماءه بالمحرِّمين المتشددين؛ ليسهل العصيان والمخالفة، ونزع الثقة والأمان فيهم والأذهان عند تشبعها بمثل هذا تسير في حياتها تتوجس - من حيث لا تشعر من التحريم وتتهرب منه - وتجد بعض العلماء المتشبعين من متابعة مثل تلك السياقات يتحرجون من إطلاق التحريم والمنع، ويهونون من المحرمات من حيث لا يشعرون؛ لأن القلوب منكسرة من سياط الإعلام المنحاز لليبرالية المعادية للدين عقيدة وشريعة، فتحيي الليبرالية الإرجاء الفقهي في دول الإسلام. وحتى أصبح الأفراد يلتقطون ــ بلا إرادة ــ التحريم الشاذ المخالف ، فيرتاح للإباحة، وينقبض من التحريم؛ وبذلك يتم لليبرالية ما أرادته من تبديل وتحويل مكانة المقدس من النصوص والأحكام عقيدة وشريعة إلى الغير مقدس، يظهر ذلك جليًا في تقديس العقل وتأليه أحكامه عند من أطلقوا على أنفسهم أصحاب الاتجاه اليساري الإسلامي (الليبراليين الإسلاميين) فقد حاربوا

---

(١) بنية العقل العربي. د/ محمد عابد الجابري: ص ٥٧٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٩ ، ٢٠٠٩م.

النصوص بشدة ؛ لأنها تعيق انطلاقتهم من ربقة الدين، فالنص عندهم يعتمد على سلطة الكتاب، وليس على سلطة العقل، وحجة السلطة ليست بحجة؟! لأنَّ هناك كتباً مقدسة، في حين أنه يوجد واقع واحد، وعقلٌ واحد"(١).

وفي هذا الاتجاه يقول حسن حنفي أحد أقطاب هذا الاتجاه:" إنَّ العقل هو أساس النقل، وإنَّ كل ما عارض العقل فإنه يُعارض النقل، وكل ما وافق العقل فإنه يوافق النقل، ظهر ذلك عند المعتزلة والفلاسفة ...ولقد احتمينا بالنصوص فجاءت باللصوص؟!"(٢)؛هكذا تحول المؤمنون ودعاة وعلماء الإسلام إلى لصوص، والعبارة هذه استعارها من الشاعر الماركسي الفلسطيني " محمود درويش"(٣)، وأخيرًا فإنَّ الليبرالية لا تمانع من التشريع للمستبدين في مواجهة من يمنع من إطلاق العقل ورفعة الدين، بل توجب جهاده وقمعه.

(ب) الجذور الفلسفية والاستشراقية لتقديس العقل لدى الفكر الليبرالي العربي المعاصر:

لقد كان التوجيه الفكري الفلسفي الاستشراقي العلماني والليبرالي الغربي لمبتعثي العالم العربي والإسلامي بالغ الأثر وعميقه؛ مما أدى إلى بروز مثقف حديث متشبع بالقيم الثقافية الحديثة، وغير ملتفت إلى الثقافة الدينية، التي لم تعد تواكب المشاغل التي أصبحت تشغل فكره، في حين أُجبر – الدينيون– على الخروج عن حركة التاريخ والمجتمع، بفعل قصور أيديولوجيتهم عن استيعاب مستجدات العصر، فظهرت

---

(١) اليسار الإسلامي . أ / محسن الميلى : ص ٥٣ ، دار النشر الدولي . الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

(٢) التراث والتجديد . د/ حسن حنفي : ١١٩ : ١٢٠ ، ط٣ دار الأنجلو المصرية ١٩٨٧م

(٣) اليسار الإسلامي . مصدر سابق : ص١٢٠ ، هكذا يصور حسن حنفي حماة الدين وعلمائه بأنهم " لصوص" وهو أحد مصطلحات التطاول على علماء الدين، ويتضح عدم فهمه لدورهم في بيان الدين وتوضيحه، وكان الواجب عليه بحكم انتمائه لهذا الدين أن يتأدب في إطلاق الأوصاف والمصطلحات على الإسلام ودعاته، لكنه يساير أساتذته الماركسيين اليساريين في هذا الشأن.

المحاولات الأولى لدراسة الدين الإسلامي في ضوء العقلانية الحديثة، فنُزِع غشاء القداسة الذي كان يحول دون عقلنة – علمنة، ولبرلة – النظر في النصوص التأسيسية، وأصبح القرآن شأنه في ذلك شأن السُّنة نصوصًا لُغوية تاريخية، لا تختلف عن غيرها من النصوص اللغوية ، وتبقى لأعمال " طه حسين، وعلي عبد الرازق " في دراسة التراث الديني أكبر أثر، وإن لم تكن بالضرورة الأكثر جذرية"([1]).

ويظهر التأثر ونزع غطاء القداسة إلى الطعن في الكتب السماوية ومساواة المحرَّف منها مع غير المحرف، فقد شاع الانتقاص من موثوقية القرآن على لسان العلمانيين منذ أن طعن" طه حسين" في خبر القرآن الكريم حول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في كتاب: (في الشعر الجاهلي) إلى أنَّ" للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً... ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أُخرى"([2]).

كما حاول علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم "نفي كون الرسولﷺ مؤسس الدولة الإسلامية، وأن زعامته زعامة دينية خالصة، فالإسلام – عند علي عبد الرازق–" دين لا سياسة، ورسالة لا حُكم، وروحانية لا دولة، وبلاغ مجرد عن التنفيذ"([3])، فقد تشبع هؤلاء من حينها كل ما ردده المستشرقون في شأن الوحي

---

(١)العلمانية من منظور مختلف. د/ عزيز العظمة : ٢٢٦ ، مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٩٢م.

(٢) في الشعر الجاهلي . طه حسين : ص ٣٨ ، ط٢ دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ١٩٩٨م.

(٣) الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق : دراسة ووثائق . د/ محمد عمارة : ١٥٤ ، ١٧١ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠٠م، وأود التنبيه إلى أن الدكتور" طه حسين" قد تراجع عن أرائه قبل وفاته بزمن يسير، لكن الاستشهاد بأن الفكر العلماني الليبرالي لا يزال يردد ويتغنى بمثل هذه الآراء والمقولات حتى وإن تراجع عنها أصحابها.

بشكل سافر ، حتى أن أحد الباحثين قال:" لقد التزمنا– في هذا الباب من الدراسة– أن نتجنب الحديث عن الأثر الاستشراقي في كتابات العلمانيين قدر الإمكان...؛ ذلك لأن السطو العلماني على الفكر الاستشراقي قد بلغ مدىً بعيدًا يحتاج إلى دراسة مستقلة "([١]).

(١) موقف الفكر العلماني من النص القرآني .د/ أحمد الطعان : ص ٤١٩، رسالة دكتوراه غير منشورة.

المبحث الثاني : موقف الفكر الليبرالي من الوحي الإلهي

(أنسنة الوحي الإلهي)

(أ) : أصناف الليبراليين المعاصرين في موقفهم من الوحي الإلهي.

قضية الإيمان بالوحي الإلهي من أهم القضايا في الأديان السماوية- بل والوضعية- من حيث إن الإيمان بها يؤدى إلى الوثوق بكل ما يأتي به الرسول ويُشرع، " فالمثبتون للوحي يبنون قولهم على أساسين: أحدهما: تقرير إمكان الوحي، ورد شبهات ودعاوى المنكرين لها، وثانيهما: بيان الدلائل العقلية القاطعة على ثبوت الوحي، وإثبات تحقق وحي الله إلى أنبيائه، وما يتميز به النبي الصادق من المتنبي الكاذب، وأنه لا يمكن أن يلتبس الأمر في ذلك؛ لظهور أدلة نبوة النبي الصادق وتنوعها ، وكونها قاطعة الدلالة في ذلك (١).

وأمَّا المنكرون للوحي فترجع دعاواهم إلى أمرين: فإما أن ينكروا الوحي جملة، وإما أنْ يفسروه تفسيرًا يخضع للظواهر البشرية، بحيث لا يكون هو مقتضي اصطفاء من الله تعالى، ومن ثمَّ لا يكون مقدسًا ولا مُلزمًا لأتباعه الخضوع له تشريعًا أو اعتقادًا(٢)

ومع ظهور تيار الليبراليين الجدد وتنامي فكرهم في العالم الإسلامي في العصر الحاضر، كانت قضية الوحي من صميم اهتماماتهم ، حيث التعامل السلبيُّ مع الوحي، تنكرًا له حينًا وتحايلًا ملبسًا على مفاهيمه حينًا آخر، وانقسم الليبراليون العرب تبعًا للخلفية الفكرية لكل فريق تارة، أو بسبب اختلاف مقتضيات المرحلة إلى فريقين :

الفريق الأول : المنكرون للوحي الإلهي من أصله صراحة ، وأنه لم يكن ثمَّةَ وحيٌّ من الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ ؛ لأنَّ الإيمان بالوحي مرتبط بالإيمان بالله وبرسله ، والإيمان بالله ورسله يثمر الإيمان بالوحي ، فمن أنكر الأديان فلن يكون من المؤمنين ...

---

(١) انظر: المعرفة الإسلامية مصادرها ومجالاتها. د/ عبد الله القرني: ١٥٤،٨، ط٢مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م

(٢)انظر: موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين (دراسة تحليلية نقدية) .د/ صالح بن محمد بن عمر الدميجي: ص ٢١٦، ط١، الرياض، ١٤٣٣هـ .

فهؤلاء يتعاملون مع الإسلام من خارجه؛ لكونهم ينتمون إلى دين آخر وحضارة مختلفة؛ أنهم لا دينيون "ملاحدة"؛ ولذا كانت مواقفهم أشدُّ انحرافًا، وخطابهم أكثر وضوحًا، فالدين ليس دينهم والكيد له ليس عجبًا منهم، من أمثال: شبلي شميل، وسلامة موسي، وفرح أنطون، وفارس نمر، ونيقولا حداد، ولويس عوض، ومراد وهبة، ويعقوب صروف، وجورج طرابيشي، وبرهان غليون، إدوارد سعيد...إلخ، والمتأثرون بهم من المنتسبين للإسلام من أمثال: إسماعيل مظهر، ومحمود عزمي، ومحمد حسين هيكل، ومنصور فهمي، وطه حسين، ولطفى السيد، وحسين فوزى(١)، ويصفهم حسن حنفي قائلاً: " أكثرية هذه الفئة تربطها بأوروبا أوشاج ثقافية أو دينية، فقد تربت في مدارس غربية خاصة، كما نشأت في الغرب وتكونت ثقافياً فيه، وتظن أن التراث القديم تراث إسلامي لا يرتبطون به دينيًا أو ثقافيًا "(٢).

والفريق الآخر: المثبتون للوحي (اسمًا) بيد أنهم يفسرونه بما يخرجه عن حقيقته، ويؤول معناه إلى كونه نشاطًا بشريًا، ليس له ارتباط بالله تعالى. وقد سلك هذا الفريق طرقًا شتى ومناهج عدة تؤول في نهايتها ــ أو تكاد ــ إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها أرباب الفريق الأول، وظهرت لهم مشاريع فكرية كبيرة تصب في هذا الاتجاه، من أبرزها:"تجديد الفكر العربي" لزكي نجيب محمود،و" نقد العقل العربي" لمحمد عابد الجابري، و"التراث والتجديد" لحسن حنفي، و"النزعات المادية في الفلسفة العربية "لحسين مروة، و"نقد العقل الإسلامي" لمحمد أركون، و(النص والحقيقة) لعلي حرب، وغيرها(٣).

هذان الفريقان اللذان أخذا على عاتقهما تصحيح مسيرة الوحي الإلهي بإنكاره تلويحًا أو تعريضًا، مستخدمين أساليب ووسائل شتى، وعن هذين الفريقين يقول نصر أبو

---

(١) انظر: موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين: ص ٢٢١.
(٢) التراث والتجديد . د/ حسن حنفي : ص ٣٠ .
(٣)انظر: موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين: ص ٢٢١، ٢٢٢ .

زيد:" اتجهت التيارات العلمانية إلى مواجهة الحاضر ومحاولة حل إشكالياته بآليات ذات طابع عصري في أغلب الأحيان ، ولكنها أحست بضرورة طرح هذه الآليات طرحًا يسوغ قبولها من الجماهير، فوجدت -في بعض اتجاهات التراث- (سندًا) لتوجهاتها، وعلى ذلك فلم يكن الاختلاف بين جناحي الأُمة _ كما يتصور اليسار الإسلامي _ خلافًا جذريًا قيمًا يرتبط بعلاقة كل منهما بالتراث، بل تركز الخلاف في الطريقة التي استعمل بها كل منهما التراث، حيث تحول لدى السلفيين إلى إطار مرجعي، بينما تحول عند العلمانيين إلى غطاء وسند"(١).

(ب) : الفكر الليبرالي وأنسنة الوحي الإلهي

ترجع تفسيرات ظاهرة الوحي عند الليبراليين لتفسيرات أكثر حداثية، طبقًا لأفهامهم السقيمة وشطحات أوهامهم الفكرية المعوجة تعود في مجملها إلى تيارين رئيسين: أحدهما: يفسر ظاهرتي الدين والوحي بأنَّ الدين حالة نفسية تصاب بها الشعوب في حالة هزائمها النفسية، وما الوحي غير حالة تخييلية تعتري الأنبياء_ بحسب تعبيرهم "خرافة"_ ، والآخر: يفسر الدين والوحي بكونهما ظاهرة تاريخية أفرزتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية ، وينبغي أن تختفي هذه الظاهرة باختفاء أسبابها، أو بانتهاء الحاجة إليها بارتقاء البشرية إلى طور جديد وبلوغها مرحلة النضج، وأنَّ الوحي فينبغي أن يخضع للواقع ويتطور مع حركة التاريخ .

وفي هذا السياق يعبر أحدهم قائلاً:" لماذا الالتفات إلى الوراء والتمسك بالنصوص التي نزلت قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان لتعالج مشكلات قد مضى وقتها ولم يعد لها مبرر في هذا العصر، ولماذا لا نُطوع الوحي ونصوصه لظروف العصر ومقتضياته كما فعل الغرب مع كتبهم المقدسة؟!"(٢).

---

(١)نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد : ص ١٥٤ ، ط٢ ، دار سينا ، القاهرة ، ١٩٩٤م

(٢) المأزق في الفكر الديني بين النص والواقع . د/ نضال عبد القادر الصالح :ص ٢١٩ ، ط١ ، دار للطباعة والنشر ، ٢٠٠٦م.

لقد بلغ به الشطح مداه وسوء الفهم حتى يصف كتب الغرب المحرفة بأنها مقدسة، ويصف كتابنا المكنون بأنه غير مقدس، والوحي بأنَّه غيرُ معصوم، ألا ساء ما يحكم هو وأمثاله!

معلوم أنَّ الوحي الإلهي له صفة القدسية، ولا يستطيع أحدٌ كائنًا من كان النيل منه، إلا أن الليبراليين يراوغون بداية في موقفهم منه، فيقولون:" النص مقدس، ولكن فهمه غير مقدس"_ يقصدون فهم علماء ورجال الدين المسلمين ، أما هم ففهمهم له مستقيم وترهاتهم حوله مقدسة _أو " عندنا إسلامات متعددة فأيها نُطبق؟!"، أو يجب المحافظة على مسافة بين النص وقارئه "، ولا تخلو هذه الإطلاقات من قدر من الإجمال أوجد ثغرة يتم من خلالها تسريب المضامين العلمانية.

ومحصلة موقفهم النهائي من قضية الوحي" أنَّ الشريعة تكتسب قدسية زائفة نتيجة عدم الإقرار بطبيعتها الحقيقة؛ إذ هي لا تعدو أن تكون غير قراءة بشرية للوحي، وفعلاً إنسانيًا ينتابها ما ينتاب الفعل البشري من الخطأ والصواب، فالشريعة لا تفسر نفسها بنفسها وإنما يفسرها الإنسان، وبمجرد نزول الوحي إلى الناس ومع لحظة قراءتهم له يتأنسن، وينتقل بفعل التفاعل الإنساني معه من كونه منطوقًا إلهيًا إلى كونه مفهومًا بشريًا، ويتحول من طبيعته التنزيلية إلى طبيعة تأويلية، ومن كونه حكمًا لله إلى مجرد حكم الإنسان"(١).

اتخذ الفكر الليبرالي الإنسان أساسًا لمنطلق شطحه الفكري لإضفاء عدم القداسة على الوحي وإمكان وقوعه، وذلك بجعل الإنسان مركز الكون ومحور الوجود والإله الحقيقي،

---

(١) ينبوع الغواية الفكرية غلبة المزاج الليبرالي وأثره في تشكيل الفكر والتصوات". عبد الله بن صالح العجيري:ص ٢٠٢ ، ط١ ، الرياض ١٤٣٤هـ ، وقوام العبارة(لا تعدو أنْ تكون قراءة...).

وليس هناك فرقٌ بين الله والإنسان، فالإنسان يحقق كماله عندما يكون إلهًا؛ ومن ثمَّ يستطيع أن ينوب كل واحدٍ منهما عن الآخر، فبدلاً من أن يكون الله هو محور الوجود يكون الإنسان المؤله الكامل " الإنسان الإله" هو محور الوجود!(١).

يقول فؤاد زكريا:" لا توجد في عالم البشر مفاضلة بين حكم إلهي وحكم بشري؛ لأنَّ كل حكم يتولاه الإنسان، حتى لو كان يرتكز على شريعة إلهية ، سيصبح بالضرورة بشريًا، تنعكس عليه أهواء البشر وتحيزاتهم وأطماعهم وكل جوانب ضعفهم، وهذا معناه أنَّ الاختيار الحقيقي ليس بين حكم الله وحكم الإنسان، وإنما بين حكم بشري يزعم أنه ناطق بلسان الوحي الإلهي، وحكم بشري يعترف بأصله الإنساني"(٢).

كما يبين أنَّ لحظة تأنسن النص بدأت بلحظة تلقي النبي ﷺ إياه، فيقول مؤكدًا ما سبق ومبينًا لحظة تأنسن النص:" والقرآن نص مقدس من ناحية منطوقه ، لكنه يصبح مفهوماً بالنسبي والمتغير، أي:من جهة الإنسان، ويتحول إلى نص إنساني" يتأنسن"، ومن الضروري هنا أن نؤكد أنّ حالة النص الخام المقدس حالة ميتافيزيقية لا ندري عنها شيئاً إلا ما ذكره النص عنها ونفهمه بالضرورة من زاوية الإنسان المتغير والنسبي، النص منذ لحظة نزوله الأولى ــأي مع قراءة النبي له لحظة نزوله ــ تحول من كونه (نصًا إلهيًا) وصار فهمًا(نصًا إنسانيًا)؛ لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل، إنَّ فهم النبي للنص يمثل أولى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشري، ولا التفات لمزاعم الخطاب الديني بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص، على فرض وجود مثل هذه الدلالة الذاتية. إنَّ مثل هذا الزعم يؤدي إلى نوع من الشرك من حيث يطابق بين المطلق والنسبي، وبين الثابت والمتغير، حيث يطابق بين القصد الإلهي والفهم الإنساني لهذا القصد ولو

---

(١) راجع: نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد : ص ١٥٤.

(٢) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة . د/ فؤاد زكريا : ١٤٩، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة ١٩٨٦م.

كان فهم الرسول، إنه زعم يؤدي إلى تأليه النبي، أو إلى تقديسه بإخفاء حقيقة كونه بشراً، والتركيز على حقيقة كونه نبياً "(١).

إذاً فبعد تبليغ الوحي الإلهي للناس لم تعد له صفة القداسة الإلهية بدعوى التأنسن، وهو ما أكده نصر أبو زيد:" إنَّ النصوص دينية كانت أم بشرية محكومة بقوانين ثابتة، والمصدر الإلهي للنصوص الدينية لا يخرجها عن هذه القوانين؛ لأنها "تأنسنت " منذ تجسدت في التاريخ واللغة وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد. إنها محكومة بجدلية الثبات والتغير، فالنصوص ثابتة في "المنطوق" متحركة متغيرة في "المفهوم"، وفي مقابل النصوص تقف القراءة محكومة أيضا بجدلية الإخفاء والكشف"(٢).

وبإخضاع مقولات الليبراليين للتحليل العلمي نلمح فيها مسايرتهم للفلاسفة الملحدين في الفلسفة الغربية، فهم يرددون الأفكار والمقولات نفسها بصيغ متقاربة منها، والدليل على ذلك قول "جون لوك ":" لم تبق حاجة أو نفع للوحي، طالما أنَّ الله أعطانا وسائل طبيعية أكثر يقينًا لنتوصل بها إلى المعرفة "(٣).

ويقول سبينوزا:" لسنا ملزمين بالإيمان بالأنبياء، إلا فيما يتعلق بغاية الوحي وجوهره"(٤)، ويوضح غاية الوحي قائلاً:" هي محبة الله بصدق وإخلاص ، ومحبة

---

(١) نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد : ص ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق : ص ١١٩.

(٣) تكوين العقل الحديث . جون هرمان راندال : ص ٤٤، ترجمة : جورج طعمة ، ط٢ دار الثقافة ، بيروت

(٤) رسالة في اللاهوت والسياسة. باروخ سبينوزا ، ترجمة وتعليق. د/ حسن حنفي، مراجعة: د./ فؤاد زكريا : ص ١٦٨ ، ط٤ دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٧م.

الناس، وفعل الخير"(١) أي: أنَّ دوره اجتماعي، وليس له صفة الوازع الديني نفس ما يردده الليبراليون العرب!

فالوحي يمثل مرحلة تاريخية، وهو ما عبر عنه الليبراليون العرب – بخاصة اليساريون – حيث أكد حسن حنفي أنَّ تطور الوحي واكتماله في المرحلة الأخيرة لا يعني إلغاء الرسل وإعدام الأنبياء، فلا يُقال اليوم: إن الأنبياء اليوم ليسوا أنبياء، ولا أن الرسل ليسوا رسلاً، وإن رسول الله ليس كذلك الآن؛ لأنَّ ذلك خلط بين مراحل التاريخ، كان الأنبياء أنبياء وكان الرسل رسلاً ، وأدوا أدوارهم في التاريخ ، وتحققت غاية الوحي المرحلية ، وهم كذلك الآن تاريخياً ، ولكن بطبيعة الحال لا يظهرون اليوم كأنبياء ورسل من جديد ، فقد تطور الزمان وتحققت الغاية ، وأصبح العقل قادراً على التمييز بين الحسن والقبيح"(٢).

(ج):تأثر الفكر الليبرالي المعاصر بالمستشرقين في القول بأنسنة الوحي الإلهي :

لقد بلغ الشطح والوهم الليبرالي مداه– فكرًا وفهمًا– في التأثر بآراء المستشرقين حول جمع القرآن الكريم وتكرارها، حتى لكأنه وُظف لهذا الغرض بالذات، فهذا " طيب تيزيني(٣) " يتبنى ذلك في كتابه "النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة"، فلا يفتأ يكرر مقولات هنري ماسيه، ودومينيك سوردويل، وجاك بيرك، ولوي غارديه، وجولدتسيهر، ومونتجمري وات(٤)، بل وجدنا من كان أشد غلوًا وتطرفًا فتجرأ على

---

(١) المصدر السابق : ص ١٩٥.

(٢) من العقيدة إلى الثورة . د/ حسن حنفي : ٤/ ٢١٤ .

(٣) باحث ومفكر سوري، واصل دراساته العليا في ألمانيا، وحصل منها على الدكتوراة في الفلسفة ١٩٦٨م، ثم عاد إلى سوريا بجامعة دمشق له العديد من المؤلفات أبرزها "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بدايته حتى المرحلة المعاصرة في اثني عشر جزءًا، ويتجه تيزيني في أبحاثه إلى النزعة الماركسية في تفسير التراث" انظر: موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين ،دراسة تحليلة نقدية). د/ صالح بن محمد بن عمر الدميجي: ص٢٢٢،، ط١، مجلة البيان ١٤٣٣هـ.

(٤) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة . طيب تيزيني : ص ٦٧،٧٣، ٧٥، ٧٩ ١٤٧، ١٤٨ ،ط٢ دار الينابيع . دمشق .

كتاب الله تعالى، فوسمه بالتحريف والتزوير مثل محمد شحرور، وحسن حنفي، ورشيد الخيون، وغيرهم كثير(١).

إن هذا الأساس الفكري الفلسفي الذي يتبناه هؤلاء وغيرهم في عصرنا الراهن- ما هو في الحقيقة إلا استيراد المقولات الغربية حول العقلانية والتنوير والحداثة يقول أحدهم : نلاحظ أن معيار النظر إلى بنية هذا الإنتاج وإلى وظائفه ومستواه وآفاقه- يكمن فيما يقدمه الفكر العربي الراهن واحتياجاته إلى الفلسفة والإنتاج الفلسفي في معاركه أو سعيه لتحقيق قدر أو آخر من التقدم على قاعدة العقلانية والتنوير والحداثة والمشاركة في صنع العصر الجديد (٢).

ويرى أيضاً:" أن الفكر الفلسفي العربي الإسلامي كان عليه أن يلف على الفكر الديني التفقيهي ، بدعم من النص القرآن الكريم، كي يكتسب أولاً إقراراً شرعيًا بوجوده، وكي يحقق-على هذه الطريق- استقلاليته الذاتية النسبية الضرورية حيال الأنساق الذهنية المهيمنة في حينه ثانيًا"(٣).

بناءً على ذلك إذن النهوض الحضاري المنشود يجب أن لا يبني على مبادئ الأمة وهويتها الذاتية !! ، ويحاول " تيزيني" أن يقدم نفسه كمتمسك بالنهج العلماني المعتدل إذ يعلن أنه يقر ضمناً بأن القرآن وحي من عند الله أن يحشر أي أثر ذي صلة بهذا الموضوع مهما كان حاله ليظهره على أنه شاهد على وقوع التلاعب بنصوص القرآن الكريم .

---

(١) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة . محمد شحرور : ص١٦٠ ، ط١ دار الأهالي ١٩٩٢م.وانظر: رسالة في اللاهوت والسياسة . لباروخ سبينوزا .مصدر سابق :ص ٢٢.
(٢) آفاق فلسفية. مصدر سابق : ص١٦٢.
(٣) المصدر السابق : ص٢٦٦.

(د) : الفكر الليبرالي المعاصر ونظرية الوحي الشعوري :

يشرح أحد المستشرقين دعواه كون الوحي المحمدي شعورًا داخليًا أو حالة نفسيَّة، بأنها رغبات وطاقات وصلت إلى شعور محمد ﷺ من لا شعوره، وإلى وعيه من لا وعيه([1])، فتولد منها هذا الوحي، وأنَّ هذا اللاشعور قد يكون الجمعي الذي تتراكم فيه الرغبات أو الطاقات في مجتمع ما، ثم تتجمع في لاشعور فرد من أفراد المجتمع؛ ليقوم بالتعبير عن مجتمعه ككل، ومن ذلك ما ردده في هذا الصدد جولدتسيهر ، وبلاشير وغيرهما.

وسيرًا على ضلال المستشرقين وشطحاتهم وسوء فهمهم أطلق اليساري حسن حنفي— وأمثاله– شطحات أوهامهم حول الوحي، فيقول: "والوحي ينبت في الشعور...ويكون العيب كل العيب في جعل الوحي مطلقاً خارج الزمان والمكان أو حرفًا في نص مدون"([2])، فالوحي ليس مصدره الله لا في زمان ولا مكان ، بل هو تنزيل إلى البشر، وحلول في التاريخ ([3]).

فالوحي ليس معطى من الله، بل وحي منادى به اقتضته أحوال الناس واحتياجاتهم، كما أنه لا يتجاوز كونه رد فعل انفعالي يشعر به أي إنسان حينما تواجهه مشكلة في حياته فيبحث لها عن حلٍ : "ونصوص الوحي ذاتها نشأت في الشعور، إما الشعور العام الشامل، وهو ذات الله ﷻ، أو في الشعور المرسَل إليه؛ وهو شعور الرسول ﷺ ،أو شعور المتلقي للرسالة؛ وهو شعور الإنسان العادي الذي يشعر بأزمة فينادي على حلٍ، ثم يأتي الوحي مصدقاً لما طلب"(٤).

---

(١) الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر. مونتجمري وات، ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ: ص ٥٣، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م

(٢) هموم الفكر والوطن (الوحي والواقع : دراسة في أسباب النزول) . د/ حسن حنفي ١/١٩ ، ٢٠، دار قباء، القاهرة ١٩٩٦م، وانظر: دراسات إسلامية. د/ حسن حنفي :ص ٥٩، ط١ ، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢م.

(٣) دراسات إسلامية.مصدر سابق . د/ حسن حنفي : ٣٣٦ .

(٤) التراث والتجديد .مصدر سابق : ص ١١٤،١١٥ .

فهو معطى بشريٌّ إنسانيٌّ وليس ربانيًا" إنه في متناول النبي ﷺ يستطيع أن يستدعيه في الوقت الذي يريده ويصرفه عندما لا يريد، إنه شعور كسبي يصل إليه الإنسان عن طريق بعض الممارسات والمحاولات، بل هو مجرد تبرير يُكسب تصرفات النبي ﷺ الشرعية السياسية ليضمن استجابة الناس له "(١).

وبناءً على أنه اختيار ومعطى بشري يذهب أيضاً إلى القول: " يجب أن تُؤول نصوص الوحي التي تخالف اختياراتنا أو مصالحنا أو نزواتنا وأهواءنا، فإذا لم تخضع للتأويل يجب تعطيلها إما عملاً بقاعدة النسخ التي شهدها العصر الإسلامي الأول وأقرها الأصوليون، وإمَّا بتحويل النصوص إلى عالم المعاني، أي: إلى أنساقٍ من التصورات والتجريدات"(٢)،وبناءً عليه فلا يمكن للوحي أن ينقطع؛ لأنه تعبير عن الطبيعة الإنسانية مما يستدعي عدم ختم النبوة أو إنكارها على من يدعيها ويعني استمراريتها ودوامها " عن طريق نزوع الطبيعة ، فالطبيعة هي الوحي، والوحي هو الطبيعة.

وكل ما يميل إليه الإنسان بطبعه هو الوحي ، وكل ما يتوجه به الوحي هو اتجاه في الطبيعة ، الوحي والطبيعة شيء واحد، ولما كانت الطبيعة مستمرة فالوحي بهذا المعنى مستمر، والنبوة دائمة، ولكننا أنبياء يوحى إلينا من الطبيعة، وصوت الطبيعة هو صوت الله، والوحي الطبيعي هو أكبر رد فعل على الوحي الرأسي، فهو وحي بلا معجزات ولا ملائكة ولا أنبياء "(٣).

ويعلق اليساري "نصر أبو زيد" على الوحي عند حنفي قائلاً :" لا يكون الوحي مجرد واقعة حدثت في الماضي عدة مرات ثم توقفت تاركًا شأن البشرية سدى، بل الوحي اسم يُطلق على النشاط الذهني للإنسان في كل زمانٍ ومكانٍ"(٤)، ويفتخر بيساريته قائلاً:" هكذا يكاد يكون الخطاب اليساري أن يُحول الوحي إلى الطبيعة، ويرد

---

(١) المصدر السابق : ص ١١٥.

(٢) المصدر نفسه : ١٣٣ .

(٣) من العقيدة إلى الثورة . د/ حسن حنفي : ١٥٤/٤،١٥٣، مكتبة مدبولي .القاهرة ، د.ت ، د.ط.

(٤) نقد الخطاب الديني .د/ نصر حامد أبوزيد . مصدر سابق : ص١٨٩.

الميتافيزيقي إلى الفيزيقي ويبلور فهماً تنويرياً للعقيدة والوحي، فهمًا يجعل– من كل إنجازٍ بشري عقلاني في مجال معرفة الطبيعة والواقع – إضافة للوحي، واستمرارًا له"([1]).

وقد علقَّ أحد الباحثين المعنيين بتلك القضية قائلاً:" وهنا تبدو الدهرية المطلقة بصبغتها المادية، فالتنوير هو هذا الذي يطرحه حسن حنفي ورفاقه، حيث تصبح الطبيعة هي الإله، والوحي منها وإليها، والغيب يرتد إلى المادة والمحسوس والمشاهد، وبذلك لا ينقطع الوحي ولا ينتهي فهو مستمر ولا أدل على استمراره من الإنجازات البشرية المذهلة والمتواصلة؛ لأن الوحي اسم يطلق على النشاط الذهني للإنسان في كل زمان ومكان"([2]).

(ذ) : الفكر الليبرالي ونظرية ارتباط الوحي بنفسية الرسول:

إن المتأمل في مقولات العلمانيين الليبراليين يجدها تماماً بتمام مقولات المستشرقين نفسها، وهما انعكاس للفلسفة المادية الوضعية التي كرَّسها فلاسفة النهضة الأوروبيون منذ ديكارت وسبينوزا مرورًا بفيرباخ وماركس، ثم فلسفة الحداثة المعاصرة حتى إننا لنجد أنفسنا أمام نظرية جديدة مبتدعة عن الوحي والأنبياء أطلقها "سبينوزا" قائلاً:" يختلف الوحي عند الأنبياء تبعاً لمزاجهم وبيئاتهم وأحوالهم ، فالنبي الفَرِح تُوحا إليه الحوادث السُلام والانتصارات، والنبي الحزين توحى إليه الشرور، والهزائم، والأحزان"([3]).

لقد اتفق جل المستشرقين قديمًا وحديثًا على أنَّ الوحي لا يمكن أن يكون واقعة مستقلة عن كيان الرسول ﷺ ونفسيته أو شعوره، وإن اختلفت تعبيراتهم وصياغاتهم في ذلك؛ فعدَّ بعضهم ما يتنزل على النبي ﷺ حالة مرضية وصفها بعضهم بالصرع أو الهوس، أو الهستيريا أو الهلوسة والهذيان، وآخرون بالاستبطان أو الشعور الداخلي أو

---

(١) المصدر السابق : ١٨٩.

(٢) إشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر . نصر حامد أبوزيد أنموذجاً . إلياس قويسم : ص ١٦١ ، جامعة الزيتونة المعهد العلى لأصول الدين ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

(٣) رسالة في اللاهوت والسياسة : ص ١٥٠، ١٥١ .

التصوف العميق، وغيرهم بالاتصال بالشياطين([١])، ثم بدءوا يتخلون عن ذلك منذ بداية القرن العشرين أمام الانتقادات التي وُجهت إليهم من داخل مدرستهم([٢]).

ومن هؤلاء هشام جعيط الذي يردد دائماً مقولات فرويد وماكس فيبر حول النبوة، فمن مقولات فرويد في هذا الاتجاه:" إن الدين عصاب البشرية الاستحواذي وثمرة معتقدات وهمية يمكن أن تُفسر بكونها تثبيًا طفوليًا لعلاقات الولي بالطفل في سني ما قبل البلوغ([٣])، وأمَّا ماكس فيبر فيقول في تحليلاته: يبدو محمد ﷺ كالمثال الصافي للنبوة في السلوك الانخطافي الاستلابي، بل ويعدُّ فيبر سلوكيات الأنبياء جميعاً من النوع المرضي، ويسميه الهلس أو المرض النفسي"(٤).

على هذا يبني هشام جعيط فهمه السقيم الذي تأثر به من ساداته وكبرائه الذين أضلوه السبيل، فنزع كل ربقة من قداسة للوحي، فيّعُدُ الأنبياء مطبوعين بشيء من العصاب، ويعدّ حالة النبي ﷺ التي كان يعيشها في أثناء الوحي من النمط الاستلابي أو الاستحواذي أو الامتلاكي، وهي حالة مرضية تُصنَّف في الأمراض النفسية، ولكنه يرى أن حالة الرسول ﷺ المرضية هذه حالة متحضرة إذا ما قورنت بأنبياء بني إسرائيل في نوباتهم العصبية؛ لأن ما كان يمس محمدًا ﷺ كان يجري في داخل الضمير فلا يُبرهن عليه بأي اضطرابٍ خارجي([٥])!

---

(١) انظر: دفاع عن محمد ﷺ . د/ عبد الرحمن بدوي ، ترجمة : كمال جاد الله : ص ٥٧ : ٦٧، الدار العالمية للكتاب والنشر، القاهرة ١٩٩٩م ، وانظر : الوحي والقرآن والنبوة . هشام جعيط : ص٩٦ ، ط١ دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٩م.

(٢) انظر: دفاع عن محمد ﷺ . مصدر سابق : ص٥٩ ، ٦٣.

(٣) راجع : أبعاد الدين الاجتماعية ، مقال : " صعوبات تحديد الدين" . سيد حسن الأطاسي ، تعريب : صالح البكاري : ص ٢٢ ، سلسلة موافقات .العدد (١٢) ، نشر الدار التونسية للنشر، د. ت.

(٤) الوحي والقرآن والنبوة . هشام جعيط . مصدر سابق: ٧٤، ٧٦.

(٥) المصدر السابق : ٨١.

هنا ينتقل جعيط لمرحلة أكثر تطورًا في انحرافه وشطحه الفكري والديني تجاه الوحي الإلهي المقدس ويجعل الجنون أصلاً للوحي، والجنون في القرآن ــ من وجهة نظره ــ لا يعني الاختلاط العقلي وذهاب العقل والتمييز، وإنما يعنى أنَّ محمدًا ﷺ مسكون من الجن!!([1])، بل إن الأنبياء اقتربوا من الجنون دون الوقوع فيه(٢)، والوحي هجوم مباغت للضمير(٣).

فمفردات الاستلاب والامتلاك والاستحواذ مفردات غريبة يصف بها حالة النبي ﷺ في أثناء تنزُّل الوحي عليه([4])!، والهلس والهلوسة – من وجهة نظر "هشام جعيط"– تفسير صحيح للوحي في الغرب نادى بها ماكس فيبر، وهذا التفسير سينتشر يوماً بين المسلمين فيسبب لهم تشنجاً([5]).

والواقع أن جعيط وأمثاله أصابتهم لوثة التأثر بدهاقنة المستشرقين الذين ألغوا نعمة العقل لديهم والتفكر في الأمر بروية وتجرد من الهوي وأمضوا العصبية والحقد على الإسلام وذلك بالطعن في كل ما يتصل بسنده الإلهي، فأصيبوا بنوبات التشنج العقلي والفكري !

هنا يلتقط "حسن حنفي" هذه المقولة، ويبني عليها أوهامه وشطحاته الفكرية وخيالاته المريضة حول وحي السماء فيقول:" الوحي عبارة عن مواقف إنسانية زاخرة بالأمل، والمعاناة، والجهد، والفرح، والألم، وتجارب النفاق، والخداع ، أنه قلق وضيق ، وأملٌ وألمٌ وتوجع يحسُّ به الفرد"([6]).

---

(١) المصدر نفسه : ص ٨٥

(٢)المصدر نفسه: ص ٢٨.

(٣)المصدر نفسه: ص ٦٩.

(٤)المصدر نفسه: ص٩٢.

(٥)المصدر نفسه: ص٩٢ .

(٦) في فكرنا المعاصر .د/ حسن حنفي : ص : ١٨٠، ط٢ دار التنوير . بيروت ١٩٨٣م.

فإذا كان حسن حنفي قد خلع صفة القداسة عن الوحي الإلهي، وجرده من كل معاني المقدس، فإننا نجدنا أمام أركون الذي يحول الدفة إلى من يتنزل عليهم وحي السماء، وهنا يطعن في اصطفائهم واختيارهم من الله ﷻ، ويصف الأنبياء بأنهم كالشعراء الكبار، وكالفنانين الكبار(١)!

ويطور التصور والطعن في الأنبياء نصر حامد أبو زيد قائلاً :" فإن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والنوم على سواء ، وليس معنى ذلك التسوية بين هذه المستويات من حيث قدرة المخيلة وفاعليتها ، فالنبي يأتي من دون شكٍ في قمة الترتيب ، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب"(٢).

ومن خلال ذلك يذهب إلى الطعن في قدسية القرآن الكريم، فيقول:" لا نغالي إذا قلنا: إنَّ تثبيت النص الذي نزل متعدداً في قراءة قريش كان جزًءا من التوجيه الأيديولوجي لتحقيق السيادة القرشية ، وذلك أنَّ قريشاً استولت على الإسلام ذاته وحولته لأيديولوجيتها الخاصة ، فانتشرت عمليات المحو والإثبات على جميع المستويات ... التاريخ ...والأدلة الدينية ...ولم ينج القرآن من عمليات المحو والإثبات تلك"(٣).

لقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن هؤلاء يرددون كلام أسيادهم من الوضعيين والماركسيين والوجوديين والاجتماعيين الملحدين، كما يكررون كلام المستشرقين نفسه

(١) تاريخية الفكر العربي الإسلامي . محمد أركون ، ترجمة :هاشم صالح : ص ٣٨ ط٣، المركز الثقافي العربي ١٩٩٨م . ، وانظر: نافذة على الإسلام . محمد أركون. ترجمة : صياح الجحيم : ص ١٣٤ ، ط١ دار عطية للنشر . بيروت ١٩٩٦م.

(٢) مفهوم النص .د/ نصر حامد أبوزيد : ص ٥٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٣م.

(٣) الخطاب والتاويل .نصر حامد أبو زيد : ص : ٣٧، ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ط٤ المركز الثقافي العربي . بيروت ، الدار البيضاء ١٩٩٦م .

في شأن الوحي؛ من أن المطلوب أن نتعامل مع القرآن على أنه نص تاريخي خضع لما تخضع له النصوص التاريخية، وأن نراجع تصحيح القرآن، فهناك كثير يجب إنجازه، وأصبح الكلام عن هذا الأمر وذلك المنظور الاستشراقي هواية للعلمانيين.

المبحث الثالث : الفكر الليبرالي المعاصر وتاريخية النص القرآني

ينظر الفكر الليبرالي العربي إلى التاريخية على أنها جوهر الإصلاح الثوري الذي يريده للفكر الإسلامي، وأنه لا يمكن نقله إلى الحداثة إلا من خلال التاريخية؛ حيث إنه لا سبيل إلى تمرير القراءة الحداثية للتراث إلا من خلال التأكيد على نسبيته، ولا سبيل إلى ذلك إلا من خلال إثبات تاريخيته، ومن ثمَّ يمكن مقاربته مقاربة نقدية .

(أ) : الفكر الليبرالي وتاريخية النص القرآني:

ينتقد الفكر الليبرالي الفكر الإسلامي في كونه ما زال يستبطن القرآن بشكل شعائري طقوسي، وذلك يشكل عنده عقبة أمام تحقيق التاريخية؛ إذ التاريخية شرط الحداثة، والحداثة هي نتاج التاريخية، الأمر الذي يجعل الفكر الليبرالي يزيد من ممارسة الضغط على المجتمعات الإسلامية حتى يبدو التاريخ سيد الحقيقة، ولإحياء الفكر الإسلامي لا بد من أن يتساءل عن تاريخية يقينياته الأكثر رسوخًا وتأصيلاً، إذْ الحداثة وحدها هي من تُمثل النصوص الدينية؛ لأنها أدركت تاريخيتها([1])، ويظهر هنا من هو أشد شطحاً تجاه إثبات مبدأ تاريخية النص القرآني:" إن أهم شيء أتى به العلم الحديث بخصوص القرآن هو تورخته، إنَّ هذه التورخة تعين كثيراً على فهم تطور المعاني التي أتت بها الدعوة المحمدية"([2]).

من هنا بدأ الفكر الليبرالي بتسليط مفهوم تاريخية النص على النص القرآني لتأكيد تشكل خطابه من خلال تاريخه الواقعي الذي انبثق منه، ومن ثمَّ تحديد مفاهيمه

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية .محمد أركون ، ترجمة :هاشم صالح:ص١٢٩، ط٢، المركز الثقافي العربي ١٩٩٦م، وانظر: تاريخية الفكر العربي . محمد أركون.مصدر سابق : ص ٢٢٩.

(٢) تاريخية الدعوة المحمدية في مكة .هشام جعيط : ١٨٥ ، ط٤ ، دار الطليعة ، بيروت ٢٠٠٨م.

ودلالاته بتاريخه، ويحدد أركون أنَّ البحث الذي يشتغل عليه الفكر الليبرالي حول تاريخية النص القرآني هو بحث " في كيف تشكله لأول مرة وضمن أية ظروف ، وما علاقته بالظروف التاريخية التي ظهر فيها "([١])

إنَّ الفكر الليبرالي العربي- في محاولته لما يسميه الكشف عن تاريخية النص- لا يقتصر على الكشف عن التفسير التاريخي للمفاهيم والأفكار والتصورات والعقائد التي تمت على النص من خلال ما يسميه النصوص الثانوية، بل يتجاوزه ليشمل ما يعبر عنه بربط فكرة صاحب النص! بمجاله التاريخي بكل أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية([٢]).

وعلى هذا يقوم "نصر أبو زيد" بتطبيق قانون العلاقة الجدلية بين النص والواقع الثقافي على النص القرآني ليذهب إلى أنَّ القرآن منتج ثقافي، بدأ النص منتَجًا ثقافيًا ثم صار مُنتِجًا للثقافة وأنَّ النص مرَّ بمرحلتين مرحلة التكون ومرحلة التكوين:" إنَّ النص- في حقيقته وجوهره- منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عامًا...وهي مرحلة صار النص بعدها منتِجًا للثقافة، بمعنى أنه صار هو النص المهيمن المسيطر الذي تقاس عليه النصوص الأُخرى. وتتحدد به مشروعيتها.

إنَّ الفرق بين المرحلتين في تاريخ النص هو الفارق من استمداده من الثقافة وتعبيره عنها، وبين إمداده للثقافة وتعبيره لها"([٣])،والفكر الليبرالي لا يقصر منهجية كشفه

---

(١) القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني. محمد أركون،ترجمة:هاشم صالح: ص ٥٣دار الطليعة للطباعة والنشر ٢٠٠١م.

(٢) موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام .د/ محمد بن حجر القرني :ص ١٤١ ، ط١، مجلة البيان ١٤٣٤هـ

(٣) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن. مصدر سابق . د/ نصر حامد أبو زيد:ص٢٥ .

التاريخي على التغير البشري الذي مورس على النص، بل يقوم بالكشف عمَّا يدعيه من تشكيل الواقع للنص ذاته ؟!

وفي هذا يقول "هاشم صالح":" ونقصد بالأرخنة هنا الكشف عن تاريخية الخطاب القرآني عن طريق ربطه بالبيئة الجغرافية والطبيعة البشرية القبائلية لشبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ... البحث التاريخي يثبت أنَّ القرآن مرتبط بظروف عصره وبيئته ، فألفاظه ومرجعياته الجغرافية والتاريخية تدل على ذلك"([1]).

إنَّ الغاية من هذا كله أن ينتهي الفكر الليبرالي إلى تجاوز النص ذاته الذي يعدّه العائق الأكبر لمواكبة العصر والتطور بتجاوز دلالاته.

هنا يبادر أحد دعاة الليبرالية المتحررة من قيود الدين بإعمال فهمه السقيم ، ويدَّعي أن الأحكام التي دل عليها نص الوحي ـ بعد التسليم أو تجاوز مسألة ثبوته ـ لا يمكن اعتماده كنظام حياة لنهضة الدول العربية أو الإسلامية ، ويقدم هذا الطرح من زوايا عدة :

الزاوية الأولى: ادعاء أنَّ نصوص الوحي لا تنسجم مع الواقع المعيش في هذا العصر المتسارع والمتراكم الأحداث والحافل بالتغيرات الهائلة في الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية؛ لأنَّ ذلك النص ظهر في بيئة زمانية ومكانية واجتماعية بكل ظروفها وملابستها ومشكلاتها، وهي لا تتشابه بحال من الأحوال مع البيئة التي تعيشها مجتمعات اليوم.

الزاوية الثانية: أنَّ التمسك بالدين إذا كان مطلباً للشعوب العربية والإسلامية لا ينفك عن هويتها– فإنه لابد أن تُحدّد العلاقة بهذا النص من خلال ملاحظة أن القرآن –

---

(١)القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني . مصدر سابق " تعليق هاشم صالح على الكتاب : ص ١٤.

والحديث النبوي تبع له- كتاب هداية وإيمان وفلاح أُخروي ، وليس كتاب علوم مادية ونظام دنيوي.

الزاوية الثالثة: القول بأن الاجتهادات التي قام بها علماء المسلمين في السابق مبنية على نظرات قاصرة أو لا تتفق مع المعارف والعلوم والظروف الزمانية والمكانية التي نعيشها اليوم؛ ومن ثمَّ فلابد من إعادة النظر في تلك المسائل من خلال قراءات معاصرة تنبع من واقع الحياة ، وأن يقوم بذلك أُناس تشبعوا بروح الحضارة العصرية، بل يقوم بذلك كل فرد من الناس، بحسب ما يتناسب مع ظروفه الخاصة التي تحيط به([١]).

إنَّ هذه الزوايا الثلاث تستند إلى ركائز أُخرى مرجعيتها مقولات المدارس الفلسفية والأدبية الحديثة ، كتطبيق المناهج الأدبية الحديثة لنقد النصوص على نصوص الوحي ، أو الاعتماد على مقولات ما بعد الحداثة لتبرير التخلي عن الامتثال لأوامر الدين ، ومنها ما يقوم على أساس مقولات المعرفة ومصادرها ، أو المنطق العقلي .

(ب): القرآن ترسيخ للأيديولوجيا والأسطورة لدى الفكر الليبرالي المعاصر:

لقد وظَّفَ الليبراليون لإزاحة قداسة القرآن مناهج مختلفة؛ ماركسية وإنسية وهرمينوطيقية دون اعتبارٍ لقداسته، ودون اعتبارٍ لكونه كلام الله ﷻ، كما يريد الخطاب الليبرالي نزع هالة القداسة عن الوحي أولاً ثم عمَّا يتنزل به_ القرآن الكريم _ وذلك بنزع قدسية الأسطورة والتعالي والتقديس للقرآن الكريم _ حسبما يحلو التعبير لليبراليين _ وذلك بأن ننظر إلى القرآن لا على أنه كلام آتٍ من فوق، وإنما على أنه حدث واقعي تماماً كوقائع الفيزياء والبيولوجيا([٢])، أو ندرسه بوصفه نصاً فقط، ونصًا لُغويًا دون أي اعتبار لبعده الإلهي؛ لأن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق على النص يعكر كون النصَّ منتجًا ثقافيًا، ويعكر الفهم العلمي له([٣]).

---

(١) انظر: آفاق فلسفية عربية معاصرة .د/ أبو يعرب المرزوقي، د/ طيب تيزيني: ص ٢٥٣: ٢٥٧.،ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠١م.

(٢) تاريخية الفكر . محمد أركون : ٢٨٤ .

(٣) مفهوم النص . نصر أبوزيد : ٢٧ .

من هنا يطرح المستشرق الإنجليزي "جيرالد ريتشارد هاوتنغ"شبهته لنفي كون القرآن وحيًا إلهيًا ظهر في جزيرة العرب التي كانت تعيش تلك الظروف الزمانية والمكانية المعروفة تاريخيًا؛ لكي ينفذ- من خلال ذلك- إلى القول بأن عدم الانسجام المزعوم هذا بين القرآن والمجتمع الذي توجه بالخطاب إليه دليل على أنه مجتث من بيئاتٍ أُخرى كبلاد الروم والفرس، أو فلسفات أُخرى كالرومانية والإغريقية، أو مقتبس من قوم آخرين كاليهود والنصارى، مستدلاً على ذلك بما ظنه من أنَّ مشركين من العرب ما كانوا يعرفون الله أصلاً، وأنهم إنما كانوا مجرد عبدة أصنام، ولما كان القرآن يصف حال المخاطبين بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١).

وما نصوص الوحي القرآني -في فهم الخطاب الليبرالي- إلا خرافة وأسطورة "؛ "إذْ النصوص الدينية ليست إلا مفارقة لبنية الثقافة التي تشكلت فيها- والمصدر الإلهي لها لا يلغي كونها نصوصاً لغوية مرتبطة بزمان ومكان، ولا يهمنا هذا المصدر الإلهي، وكل حديث يجرنا إلى دائرة الخرافة والأسطورة "(٢).

فالطعن في المصدر الإلهي للنص الديني المقدس حمل لواءه الليبراليون المنحرفون جيلاً بعد جيل، وقد حاز أحدهم قصب السبق وحمل اللواء قائلاً: "عملي يقوم على إخضاع القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن"(٣)، ولم يقف عند محك النقد التاريخي، بل " فرض قراءة تاريخية للنص القرآني"(٤).

ويأتي دور "أركون" في حمل لواء الانحراف الفكري الليبرالي ضد قدسية القرآن ورميه بالأسطورة والأدلجة، فيقول:"إن القرآن يقوم بعملية خلع التعالي على أحداث تاريخية واقعية حصلت في زمن النبي-ﷺ-، ولكنها حُورت من قبل الخطاب القرآني لكي

---

(١) سورة لقمان : الآية ٢٥.
(٢) مفهوم النص . نصر أبوزيد : ص ٢٧:٣٠ ، وانظر : النص ، السلطة ، الحقيقة . نصر أبوزيد : ص ٩٢، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ١٩٩٥م.
(٣) الممنوع والممتنع. على حرب: ١١٩، ط١،المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ١٩٩٥م.
(٤) الفكر الإسلامي قراءة علمية : ص ٢١٣.

تتخذ دلالة كونية تتجاوز خصوصيتها المحلية، وتتخذ صفة الكونية، وتصبح وكأنه لا علاقة لها بحدث محدد وقع في التاريخ المحسوس"([1]).

هذه الصورة السابقة التي رسمها "أركون" رائد من رواد الفكر الليبرالي الطاعن في قدسية القرآن الكريم هو ومن هم على شاكلته، أنَّ القرآن مجرد محاولات أيديولوجية، والقرآن يفعل ذلك ويتعالى بالتأريخ لمقاصد وأغراض دنيوية " فالقرآن يغطي على تاريخانيته ببراعة عن طريق ربط نفسه باستمرار بالتعالي الذي يتجاوز التاريخ الأرضي كليًا أو يعلو عليه"([2]).

لهذا يريد " أركون " أن يقف في وجه القرآن ويتصدى له، فالقرآن- من وجهة نظرة الغير منضبطة- يرسخ الأدلجة والأسطرة والتقديس:" لأنَّ النصوص جميعًا سواء في ممارسة الحجب والمخاتلة والألاعيب والمراوغة"([3])، وهو- بخبرته وعلمه الماركسي الشيوعي البائد- وتلاميذه يريدون أن يشكلوا علمًا جديدًا في كشف ذلك" ضرورة تشكيل معرفة معادية للخداع والأسطرة والأدلجة والتقديس"([4]).

إن القرآن الكريم بنظر الخطاب الليبرالي لأنه متعالي لا تاريخي ، فهو يسيطر على عواطف الناس وعقولهم ، ويزيح الموضوعية ، ويطالب بالتسليم المطلق ، ويختار قراءه منذ البداية ([5])، ويستولى على مشاعر القارئ والسامع بحيث يحاصره في سلفوية ماضوية ، فيفصل الواقع عن الإنسان ، ويصبح المثال بدل الواقع ، ويتغلب التأثر بالعاطفة على الفهم والعقل ([6]) .

كانت هذه نماذج من أفهام وشطحات الفكر الليبرالي المعاصر ونظرتهم للتراث الإسلامي ، والنصوص الإلهية المقدسة .

---

(١) الإسلام والأخلاق والسياسة . محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح : ص ٣٠: ٣١ ،ط١مركز الإنماء القومي، بيروت ، باريس ١٩٩١م ، وانظر : نقد النص . على حرب : ص ٦٥ .

(٢) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني . محمد أركون : ص ٢١.

(٣) نقد النص . على حرب : ١٧.

(٤) المصدر السابق : ٦٧

(٥) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة . طيب تيزيني : ٥٨،٥٩ .

(٦) المصدر السابق : ١٤٠:١٤١ .

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أولاً: أهم النتائج .

أولاً : بنى الفكر الليبرالي العربي المعاصر موقفه من النص الديني القرآني على أمرين متصلين: إنكار كونه وحيًا منزلاً من الله تعالى، والتأكيد على بشريته، وعلى التفريق بين القرآن الشفهي والمكتوب، وصولاً إلى القول بأسطورية القرآن وخرافته، وأدلجته.

ثانيًا: بنى الليبراليون مشروعهم الفكري في إعادة قراءة التراث على استحالة أن يُستحضر الماضي بقوانينه المعرفية وقواعده المنهجية لقراءة الحاضر بحسب منطق التاريخية ، يعود ليقرأ الماضي بقوانين وأدوات الحاضر المعرفية بحسب منطق التاريخية الغربية.

ثالثًا: قام المشروع الليبرالي- في قراءته للنص الديني- على مرجعية العقل الإنساني، ومركزية الإنسان المطلقة، بينما تقوم الأديان الإلهية على مرجعية غيبة، فالعقلانية في الفكر العربي تقليد للفكر الغربي.

وأخيرًا: كان الشطح الفكري نتيجة لعدم انضباط فهم الليبراليين الذين طبقوا المناهج الغربية على الوحي والنص القرآني، بصورة انتقائية مختزلة، ونزع القداسة عنهما هو الشاغل الأيديولوجي بدليل إطلاقه لفظ الكتاب على القرآن، لينفي أن يكون المراد به المكتوب المدون في المصحف.

وآخرًا : التوصيات.

التوفر على دراسات نقدية تحليلية للأفكار والنظريات الفلسفية والمناهج الغربية التي تمثل جذور الفكر الليبرالي العربي المعاصر، والعمل على إبراز المنهجية النقدية الإسلامية الرصينة.

المصادر والمراجع

١-أبعاد الدين الاجتماعية ، مقال : " صعوبات تحديد الدين" . سيد حسن الأطاسي ، تعريب : صالح البكاري ، سلسلة موافقات .العدد (١٢)، نشر الدار التونسية للنشر، د. ت.

٢-الأسس القرآنية للتقدم . د/ محمد أحمد خلف الله ، طبعة القاهرة ١٩٨٤م.

٣-الإسلام والأخلاق والسياسة. محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح، ط١ مركز الإنماء القومي، باريس ١٩٩١م.

٤-الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق : دراسة ووثائق . د/ محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ٢٠٠٠م.

٥-الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر. مونتجمري وات،ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مكتبة الأسرة ٢٠٠١م.

٦-إشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر . نصر حامد أبوزيد أنموذجًا . إلياس قويسم، جامعة الزيتونة المعهد العلمى لأصول الدين ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .

٧-آفاق فلسفية عربية معاصرة .د/ أبو يعرب المرزوقي، د/ طيب تيزيني ، ط١، دار الفكر، دمشق ٢٠٠١م

٨-تاريخية الدعوة المحمدية في مكة .هشام جعيط ، ط٤ ، دار الطليعة ، بيروت ٢٠٠٨م.

٩-تاريخية الفكر العربي . محمد أركون، ترجمة :هاشم صالح ،ط٣، المركز الثقافي العربي ١٩٩٨م

١٠-التراث والتجديد .د/ حسن حنفي ، ط٣، دار الأنجلو المصرية ١٩٨٧م .

١١-تكوين العقل الحديث. جون هرمان راندال، ترجمة : جورج طعمة ، ط٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦م.

١٢-الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة .د/ فؤاد زكريا، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر

١٣-الخطاب والتاويل .نصر حامد أبو زيد ، ط٤ المركز الثقافي العربي . بيروت ، الدار البيضاء ١٩٩٦م .

١٤-دراسات إسلامية. د/ حسن حنفي ، ط١ ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨٢م.

١٥-دفاع عن محمد ﷺ . د/ عبد الرحمن بدوي ، ترجمة : كمال جاد الله ، الدار العالمية للكتاب والنشر، القاهرة ١٩٩٩م

١٦-رسالة في اللاهوت والسياسة . باروخ سبينوزا ، ترجمة وتعليق . د/ حسن حنفي ، مراجعة : د. / فؤاد زكريا ، ط٤، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٧م

١٧-العلمانية من منظور مختلف. د/ عزيز العظمة ، مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت ١٩٩٢م.

١٨-العلمانيون والقرآن .تاريخية النص .د/ أحمد إدريس الطّعان ، تقديم د/ نور الدين عتر، د/ محمد عمارة : ط١ ، دار ابن حزم للنشر والتوزيع ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

١٩-غزو من الداخل . جمال سلطان ، ط١ ، دار الوطن ، الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

٢٠-الفكر الإسلامي قراءة علمية .محمد أركون، ترجمة :هاشم صالح ، ط٢، المركز الثقافي العربي ١٩٩٦م.

٢١-في الشعر الجاهلي. طه حسين ، ط٢ دار المعارف للطباعة والنشر، تونس ١٩٩٨م.

٢٢-في فكرنا المعاصر.د/ حسن حنفي ، ط٢ دار التنوير . بيروت ١٩٨٣م.

٢٣-القرآن من التفسير الموروث إلى نقد الخطاب الديني . محمد أركون، ترجمة :هاشم صالح ، دار الطليعة للطباعة والنشر ٢٠٠١م.
٢٤- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة . محمد شحرور، ط١، دار الأهالي ١٩٩٢م.
٢٥-المعرفة الإسلامية مصادرها ومجالاتها. د/ عبد الله القرني، ط٢ مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ١٤٢٩هـ /٢٠٠٨م .
٢٦-مفهوم النص.د/ نصر حامد أبوزيد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٣م.
٢٧-الممنوع والممتنع. على حرب ، ط١ ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، الدار البيضاء ١٩٩٥م.
٢٨من العقيدة إلى الثورة . د/ حسن حنفي ، مكتبة مدبولي .القاهرة ، د.ت ، د.ط.
٢٩موقف الفكر الحداثي العربي من أصول الاستدلال في الإسلام .د/ محمد بن حجر القرني ، ط١، مجلة البيان ١٤٣٤هـ .
٣٠-موقف الفكر العلماني من النص القرآني .د/ أحمد الطعان، رسالة دكتوراه غير منشورة .
٣١-موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين(دراسة تحليلية نقدية). د/ صالح بن محمد بن عمر الدميجي ، ط١، الرياض ١٤٣٣هـ .
٣٢-النص،السلطة،الحقيقة. نصر أبوزيد، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ١٩٩٥م.
٣٣-النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة . طيب تيزيني ، ط٢ دار الينابيع . دمشق .
٣٤-نافذة على الإسلام. محمد أركون. ترجمة: صياح الجحيم، ط١ دار عطية للنشر. بيروت ١٩٩٦م.

٣٥-نقد الخطاب الديني . د/ نصر حامد أبو زيد ، ط٢ ، دار سينا ، القاهرة ، ١٩٩٤م

٣٦- هموم الفكر والوطن (الوحي والواقع : دراسة في أسباب النزول) . د/ حسن حنفي ، دار قباء ١٩٩٦م

٣٧-الوحي والقرآن والنبوة . هشام جعيط ، ط١ دار الطليعة ، بيروت ١٩٩٩م.

٣٨-اليسار الإسلامي . أ / محسن الميلى ، دار النشر الدولي . الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .

٣٩-ينبوع الغواية الفكرية (غلبة المزاج الليبرالي . وأثره في تشكيل الفكر والتصورات". عبد الله بن صالح العجيري، ط١ ، الرياض ١٤٣٤هـ

الفهرس